قيام دولة الخلافة العباسية

تنظيم الدعوة العباسية

لم يكن قيام دولة الخلافة العباسية مجرد بيعة خليفة دون آخر، أو انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين في حكم المسلمين، ويعتبر هذا الحدث أكثر من مجرد تغيير في الأسرة الحاكمة. لقد كانت الثورة العباسية، وما نتج عنها من تغيير جذري في المجتمع الإسلامي، نقطة تحول هامة وفاصلة في هذا المجتمع، لازمته طوال العصر العباسي الأول.

وقد ثبت أن التنظيم العقدي في فترة التحضير للثورة ينم عن عبقرية فذّة في الإعداد والترتيب. لقد وضع العباسيون الأوائل نهجاً، في التنظيم السري، أضحىٰ مثالاً يُحتذىٰ. طبقته بعض الدول التي قامت في كنف الخلافة العباسية، كالفاطميين، بالإضافة إلى الحركات السرية التي قامت في بلاد المسلمين كالقرامطة. ويقوم هذا التنظيم على السرية المطلقة. وقد انتهج العباسيون الأوائل هذا الأسلوب السري على أثر الكوارث التي حلت بآل البيت طيلة العصر الأموي، وما عمدت إليه الدولة الأموية من القضاء على الحركات العلوية وعلى زعمائها بشكل خاص، بحيث لا تقوم لهم بعد ذلك قائمة.

وتقوم الدعوة السرية حول إمام من آل البيت يدير دفة هذه الحركات السرية، ويرعى هذه التنظيمات، ويوجه النقباء والدعاة ويقودهم[1]. وقد آلت الإمامة في هذا

---

(١) وضع المشرفون على الدعوة العباسية تنظيماً إدارياً سرياً تضمن سلسلة من المراتب بشكل تسلسلي بهدف تيسير مهمة القائمين بها. تبدأ هذه السلسلة بمرتبة النقباء =

التنظيم السري إلى بني العباس في فترة مرحلية بالغة الأهمية[1].

وأدرك الإمام محمد بن علي العباسي (١١٨ ـ ١٢٥ هـ)، الذي آلت إليه الدعوة العباسية، والذي سعى لنيل الخلافة؛ أن نقل حق الإمامة من بيت إلى بيت آخر لا بد أن

= مساعدي الأئمة، وكان عددهم اثني عشر نقيباً. وهم وحدهم يعرفون سر الإمام ويحتفظون بهذا السر لأنفسهم. وكانوا على طراز واحد من القدرات العسكرية والثقافية والإخلاص للدعوة، وقدرة على استقطاب الأنصار. ويلي مرتبة النقباء مرتبة نظراء النقباء وعددهم يساوي عدد النقباء. والنظير يحل محل النقيب عند وفاته. ويساعد النقباء عدد من الدعاة يبلغ عددهم سبعون داعياً، يأتمرون بأمرهم، ويتمتعون بقدرات دعائية وعسكرية مماثلة. وبرز من بين هؤلاء عدد من الدعاة، أخذوا على عاتقهم إعداد الأنصار نفسياً وثقافياً، وإحداث الثورة، وكانت لهم مواقف مميزة. ويلي مرتبة الدعاة مرتبة دعاة الدعاة. ويتبع الدعاة في سلسلة المراتب طبقة أخرى أدنى مرتبة هي طبقة العمال، حيث كان لكل داعٍ عددٌ من العاملين يديرون الجهاز السري. وينتهي الجهاز بخلايا سرية كانت تتوغل في عمق المجتمع في كافة الأمصار. وقام منطق هذا الجهاز السري على شعارات دعائية هي المساواة والإمامة للرضا من آل محمد، والدعوة إلى الإصلاح. راجع، مؤلف مجهول: أخبار الدولة العباسية، ص ٢١٦ ـ ٢٢٢.

(١) يذكر العباسيون قصة يفسرون بها حقهم الشرعي بالخلافة، وهي أن أبا هاشم، زعيم الشيعة الكيسانية، قصد دمشق بناء على دعوة من الخليفة سليمان بن عبد الملك، فبَرَّه ووصله، ثم رأى من فصاحته ورئاسته وعلمه ما حسده عليه، فتخوف منه مدركاً أن الشيعة هم الحزب المنافس لبني أمية، فدس له من سمه. وشعر أبو هاشم بالسم يجري في جسمه، فأدرك أنه ميت، وكان بالقرب من بلدة الحميمة، فعرَّج عليها واجتمع بعلي بن عبد الله العباسي، فأخبره بأنه هالك، وأوصى إليه، وتنازل له عن حقه في الإمامة، وسلَّمه زمام الدعوة الكيسانية، وأمدَّه باسم داعي دعاته في الكوفة ومن يليه من الدعاة، كما سلَّمه رسائل يقدمها إليهم. وعلى أساس هذا التنازل، ورث علي بن عبد الله العباسي، وابنه محمد من بعده، جميع الخطط والدعاية السرية التي كانت للشيعة الكيسانية. هذا وينكر عدد من المؤرخين هذه الرواية ولا يعتقدون بصحتها.

راجع حول هذا الموضوع: ابن الأثير جـ ٤ ص ١٥٩ وقارن بابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص ١٤٣ الذي يذكر أن هشاماً بن عبد الملك هو الذي استدعى أبا هاشم. العبادي، أحمد مختار: في التاريخ العباسي والأندلسي ص ١٩ ـ ٢١. العمرو، علي عبد الرحمن: أثر الفرس السياسي في العصر العباسي الأول: ص ٨٢ ـ ٨٣.

يسبقه إعداد الأفكار، وتهيئة النفوس لتقبل الوضع الجديد، لذلك التزم جانب الحيطة والحذر حين طلب من أتباعه دعوة الناس إلى ولاية آل البيت دون تسمية أحد.

ومن مقره في الحميمة، أخذ ينظم الدعوة، ويدير شؤونها ويرسل الدعاة والنقباء إلى الجهات الملائمة وأهمها خراسان، وذلك عن طريق شبكة سرية متعددة الحلقات، حملت اسم «دعوة آل البيت» آخذاً بعين الاعتبار الحرص على إخفاء أطماعه نحو الخلافة. ولا ريب في أن ذلك قد خدع الكثيرين من مؤيدي الدعوة إذ ظنوا أنهم يعملون لذرية علي بن أبي طالب.

وتجلت مقدرته في وضع هيكلية التنظيم السري الذي قام على الشعارات الدعائية من اختيار مركز الدعوة وشعاراتها والأمصار التي تنطلق منها، وتحديد مقر الدعاة، ومهنتهم، وطريقة التعامل مع الناس.

فمن حيث مركز الدعوة، فقد اختار الحميمة، بفعل موقعها الجغرافي على خط القوافل التجارية وطريق الحج من جهة، كما أنها تقع بعيداً عن المسرح السياسي.

ومن حيث الشعار، فإنه نادى بشعار المساواة، والدعوة إلى الرضا من آل محمد، والإصلاح. وقد ساهم هذا الشعار في نجاح الدعوة عن طريق:

- اندماج الشعوب التي أسلمت في الدولة الإسلامية.
- ضمان تكتل الطالبيين وراء الدعوة.

ومن حيث الأمصار التي تنطلق منها الدعوة، فإن محمد بن علي أمر الدعاة بالتركيز على خراسان. وهذا يعني في واقعه التاريخي، العرب من مقاتلة ومستقرين، والموالي[1]. ويبدو أنه شعر بتأزم الوضع في خراسان واقترابه من الانفجار بفعل الصراعات القبلية وتذمر الموالي، فرأى أن مرو، وهي قصبة خراسان، هي المكان الملائم لاستقطاب الأنصار لجيش الثورة فأثبت بذلك أنه كان على تفهم تام للأوضاع السياسية، وتوزيع الولاءات السياسية في الأقاليم الإسلامية[2].

---

(١) راجع وصية الإمام لدعاته من حيث تحديد خراسان كمركز لنشر الدعوة عند المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

(٢) الواقع أن الدعوة الشيعية التي قامت باسم آل البيت والتي نادت بأن الطالبيين هم الورثة الطبيعيون لخلافة النبي، وجدت في خراسان أرضاً صالحة لنموها. فمنذ أيام زياد بن =

ومن حيث تحديد مقر الدعاة، فقد اتخذ الإمام العباسي الكوفة، المعروفة بالولاء لآل البيت. وهي تصلح لأن تكون حلقة الوصل بين الهاشمية في الحميمة وميدان الحركة في مرو، بفعل جوها الموالي للثورة، والمناهض للأمويين.

وقد أشار محمد بن علي على دعاته أن يتعاطوا مهنة التجارة لإخفاء هدفهم الدعائي عن السلطة، كما أوصاهم بنشر الدعوة بالحكمة.

وهكذا توفر للدعوة العباسية القيادة الفذَّة والدعاة المخلصون والبيئة الصالحة.

أطوار الدعوة العباسية

مرَّت الدعوة العباسية بطورين هامين:

الطور الأول

يبدأ هذا الطور في مستهلِّ القرن الثاني للهجرة، وينتهي بانضمام أبي مسلم الخراساني إلى الدعوة، ويغطي الفترة الزمنية بين عامي (١٠٠ـ ١٢٨هـ/ ٧١٨ـ ٧٤٦م).

وقد تميزت الدعوة، في هذا الطور، بالسرية التامة، وخلوها من أساليب العنف، في الوقت الذي كانت فيه دولة الخلافة الأموية متماسكة.

= أبيه بدأ تهجير أعداد كبيرة من الشيعة من الكوفة والبصرة إلى منطقة بلخ في خراسان استمرت أيام الحجاج بن يوسف الثقفي. ومما لا شك فيه أن هؤلاء المبعدين وجدوا في الأقاليم الفارسية أرضاً صالحة لنشر أفكارهم عن الإمام المنتظر وهو المهدي، بفعل أن الموالي من الفرس كانوا لا يزالون يشعرون بالحاجة إلى حاكم مطلق يمتلك من الصفات ما هو فوق البشر وفقاً لما تعودوه زمن الأكاسرة، وبفعل ما كان سائداً في المجتمع الساساني من نظرية الحق الإلّهي للملوك، حيث كان يتوارث الملك أهل بيته ولا يجوز نقله إلى غير بيت الملك. وكانت العلاقات الجيدة بين خراسان وكل من الكوفة والبصرة، وهما مركز الاستقطاب الطالبي، سبباً في اعتناق أهل فارس الآراء المعادية للأمويين، لذلك استجابوا للدعوة العباسية رغبة في التخلص من حكم الأمويين وأملاً في استعادة سلطانهم الغابر الذي قوَّضه المسلمون، وكان هذا اندفاع غالبيتهم لمناصرة أي ثائر ضد الدولة الأموية.

راجع فيما يتعلق بأسباب استعانة العباسيين بالفرس واستجابة هؤلاء لهم: العمرو: مرجع سابق ص ١١٠ ـ ١١٥.

نظَّم الدعوة في العراق ثلاثة دعاة هم: ميسرة العبدي، وهو مولى لعلي بن عبد الله بن العباس، وبكير بن ماهان، ويُعتبر أهم دعاة العراق، وأبو سلمة الخلّال الذي قاد الدعوة في الأعوام الخمسة الأخيرة قبل تسلُّم بني العباس السلطة.

أما في خراسان، فقد قامت الدعوة على أكتاف جماعة من الدعاة، أشهرهم أبو عكرمة السراج، مولى ابن عباس، ومحمد بن خنيس، وحيان العطار، وكثير الكوفي، وخداش البلخي، ونقيب النقباء سليمان بن كثير الخراعي.

ويبدو أن السلطات الحاكمة، علمت بأمر الدعوة، فطاردت الدعاة وقتلت بعضهم، كما أن بعضهم الآخر راح ضحية تطرفه كخداش البلخي.

وأحدث الإمام محمد بن علي العباسي تغييراً استراتيجياً هاماً في فحوى الدعوة حين خصَّصها لنفسه، وكشف ذلك لدعاته، على أن يبقى هذا الأمر وقفاً عليهم فقط دون العامة.

وتوفي الإمام محمد في عام (١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م)، بعد أن قطعت الدعوة شوطاً بعيداً، وقد أوصى بالإمامة من بعده لابنه إبراهيم[١].

الطور الثاني

يبدأ هذا الطور بانضمام أبي مسلم إلى الدعوة العباسية، واستمر حتى عام (١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م) وهو العام الذي سقطت فيه دولة الخلافة الأموية، وقامت دولة الخلافة العباسية.

تعرضت الدعوة العباسية، بعد وفاة الإمام محمد بن علي، إلى الاهتزاز بفعل قيام حركات شيعية مستقلة عنها، في خراسان، فخشي الإمام إبراهيم أن يفلت زمام الأمور من يده، وتكتسح هذه الحركات دعوته. لذلك قام ليعيد طاعة الخراسانيين العرب بشكل خاص، واستطاع، بنفوذه الشخصي، أن يستميل زعيمهم سليمان بن كثير الخزاعي الذي تمكَّن من إعادة التلاحم بين الجماعة الخراسانية، وبين الرئاسة في الحميمة.

تميزت الدعوة، في هذا الطور، باستعمال القوة لتحقيق هدفها. فبعد اتساع خلاياها، وتعمق جذورها في المجتمع الخراساني، أضحى لا بد لها من رئيس على

---

(١) ابن كثير: جـ ١٠ ص ٥.

درجة عالية من الكفاءة، والمقدرة، يشرف على شؤونها، ويعد الخطط للتحركات المقبلة.

عرض إبراهيم الإمام، القيادة على نقيب النقباء سليمان بن كثير، وكان شيخاً مسناً، فاعتذر عن قبولها[١]، ثم عرضها على إبراهيم بن سلمة فاعتذر أيضاً[٢]. عندئذ اتخذ الخطوة الحاسمة، واختار أبا مسلم الخراساني[٣]، ممثلاً له في خراسان، فقلّده الأمر وأرسله إلى هناك[٤].

كان اختيار أبي مسلم خطوة موفقة وفاتحة مرحلة جديدة في استنهاض حياة الدعوة بفعل أن مولى يدير دفة الأمور في خراسان ذات النفوذ الفارسي الواضح، والمضطربة قبلياً، أجدر بالثقة من عربي حر. وتدل الرسالة، التي بعث بها الإمام إليه عندما ولاّه الشروع للعمل في خراسان، أن استمالة العرب اليمانية هو حجر الأساس ومفتاح النصر[٥]، فاستقامت أمور العباسيين في خراسان نتيجة جهوده السياسية والعسكرية، واستطاع هذا الرجل، بما تمتع به من كفاءات، أن يصبح الداعية العباسي

---

(١) قال سليمان بن كثير عندما عُرضت عليه رئاسة الدعوة: «لا آلي على اثنين من الناس» ابن الأثير جـ ٤ ص ٢٩٥.

(٢) برَّر إبراهيم بن سلمة اعتذاره بوجود من هو أكثر جدارة منه. المصدر نفسه.

(٣) ترجِّح الروايات التاريخية الأصل الفارسي لأبي مسلم. فهو مولى فارسي واسمه الحقيقي بهزوان. تلقى أصول الدعوة في الكوفة، فاسترعى انتباه الدعاة فيها، فقدموه إلى الإمام إبراهيم الذي لمس فيه ذكاءً خارقاً وإرادة قوية، فأيقن أنه الشخصية التي يمكن الاعتماد عليها. راجع فيما يتعلق بأصل أبي مسلم وحياته الأولى: الطبري: جـ ٧ ص ١٩٨ ـ ١٩٩. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد. جـ ١٠ ص ١٠٧ ـ ١٠٨. ابن خلكان: وفيات الأعيان. جـ ٣ ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٤) ابن خلكان: المصدر نفسه ص ١٤٧.

(٥) راجع نص الرسالة عند الطبري: جـ ٧ ص ٣٤٤. الجدير بالذكر أن بعض المؤرخين ينكرون وجود مثل هذه الوصية، وأنها موضوعة من قبل أعداء الثورة العباسية من أجل تشويه طبيعتها وأهدافها وتأليب العرب ضدها بفعل أنها توصي بالقضاء على العنصر العربي، إلا أن الأحداث تؤكد بعض ما جاء فيها خاصة فيما يتعلق باستمالة اليمانية واستقطابهم للعمل ضد مضر.
راجع حول نقد وجود هذه الوصية: عمر، فاروق: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين ص ٧٨ ـ ٧٩.

المتحكم في الشرق كله بعد أن اكتسب ثقة سليمان بن كثير[1].

هذا، وقد حفلت الأعوام الأربعة الأخيرة من حياة دولة الخلافة الأموية، (١٢٩ ـ ١٣٢ هـ/ ٧٤٦ ـ ٧٥٠ م)، بتطورات سريعة، شكّلت جذور الحياة العباسية، وتجلّت فيها مظاهر ضعف العنصر العربي بشكل عام، بفعل ما ساده من نزاعات وانقسامات حادة، وبرز خلالها ضعف الأمويين بشكل خاص، وشهدت عمليات تصفية النظام الأموي وظهرت القوى الجديدة من بين ركام المعارك على مرحلتين: مرحلة أبي مسلم الخراساني، ومرحلة قحطبة بن شبيب، وانتهت بقيام دولة الخلافة العباسية.

مرحلة أبي مسلم الخراساني

نزل أبو مسلم، فور وصوله إلى خراسان، في بلخ، ونال، بعد فترة قصيرة، ثقة سليمان بن كثير، ثم أخذ يدير الأمور بحكمة ودهاء، فراح يتنقّل في قرى الشرق، يحثُّ أهلها على الالتفاف حول الدعوة. وقد أصاب نجاحاً كبيراً في ذلك، فاستقطب الموالي بما صوَّر لهم من فساد الحكم الأموي، وأثارهم بما كانوا يعانونه من ظلم في ظله، ووعدهم بأنه سيجعلهم سادة، وسيملكهم الأرض، كما نجح في استمالة الدهاقنة وأهل الريف بتقريبه بين العقيدة الإسلامية والمعتقدات الشعبية، خاصة فيما يتعلق بمذهب تناسخ الأرواح[2]، ثم استقطب القبائل العربية اليمنية، وانضم إليه أهل التقادم المعروفين بمعارضتهم للنظام الأموي.

بعد أن اطمأن أبو مسلم إلى ما وصلت إليه الدعوة من القوة والانتشار، رفع تقريراً بذلك إلى القيادة في الحميمة. ومن جهته، أخذ الإمام إبراهيم بن محمد زمام المبادرة، فحدَّد تاريخ بدء التحرك، آخذاً بعين الاعتبار الظروف الداخلية لقوة الدعوة، والظروف الداخلية المتردية لدولة الخلافة الأموية.

وفعلاً، أعلنت الثورة في خراسان يوم الخميس في الخامس والعشرين من (شهر

---

(١) محمود، حسن أحمد والشريف، أحمد إبراهيم: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص ٤٨ ـ ٤٩.

(٢) ابن أعثم: أبو محمد أحمد: كتاب الفتوح جـ ٤ ص ٣٤٨. بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي: ص ٣١٤.

رمضان عام ١٢٩ هـ/ شهر حزيران عام ٧٤٧ م) على يد سليمان بن كثير. فالتفّت شيعة العباسيين حول أبي مسلم، وقد اتخذوا السواد شعاراً في ملابسهم وألويتهم، ولذا عرفوا بالمسودة[١].

وأقيمت في يوم عيد الفطر، في سفيذنج، أول صلاة لأنصار العباسيين[٢]، فانكشف أمرهم. وكان لا بد من الصدام مع القوات الأموية لتحديد الموقفين، السياسي والعسكري.

وعمد أبو مسلم إلى أسلوب المزج بين السياسة والقوة العسكرية، بهدف التفريق بين القوى الخراسانية[٣] ودفعها إلى الاصطدام حتى لا تتحد كلمتها، ويقوى أمرها، مما يشكل خطراً على الدعوة العباسية. فنجح بدهائه في الإبقاء على العداء بين الوالي الأموي على خراسان، نصر بن سيار، وخصومه، وتعاون مع جديع الكرماني ثم مع ابنه علي بعد ذلك، وشيبان الحروري للإطاحة بالأمويين، ثم زرع بذور الشقاق بين الوالي الأموي وزعماء القبائل. وتخلّص أخيراً من شيبان الحروري وابني الكرماني علي وعثمان.

وهكذا تحرك أبو مسلم على كافة جبهات القوى السياسية[٤]. ونجح في قطف ثمار جهوده بالقضاء على خصومه، والتفرد بحكم خراسان، وفرَّ نصر إلى نيسابور[٥].

وعمد الزعيم الخراساني، بعد أن ثبّت أقدامه في المناطق التي سيطر عليها، إلى التخلص من الزعماء البارزين الذين اعتبرهم منافسين له على الزعامة. فقتل سليمان بن كثير الخزاعي، نقيب النقباء، كما قتل ابنه محمد[٦]، وتخلص من عدد من أنصار

---

(١) ابن أعثم: جـ ٤ ص ٣٤٨.

(٢) الطبري: جـ ٧ ص ٣٥٧.

(٣) وجدت على الساحة الخراسانية أربع قوى متنافسة هي:
- قوة الدولة الأموية ممثلة بوالي خراسان نصر بن سيار.
- قوة اليمنية وربيعة بزعامة جديع الكرماني.
- قوة الخوارج الحرورية بزعامة شيبان الحروري.
- قوة الثورة العباسية بقيادة أبي مسلم الخراساني.

(٤) راجع فيما يتعلق بالسياسة التي انتهجها أبو مسلم، والتي مكنّته من التفرد بحكم خراسان: ابن أعثم: جـ ٤ ص ٣٣٨ ـ ٣٤٤، ٣٤٨. الطبري: جـ ٧ ص ٣٥٥، ٣٦٧، ٣٧٧ ـ ٣٨١.

(٥) الطبري المصدر نفسه: ص ٣٧٧ ـ ٣٨١.

(٦) الجدير بالذكر أن حادثة قتل سليمان بن كثير تمّت دون العودة إلى الخليفة أو أخذ رأي الأمير=

الثورة الذين شاركوه في العمل السياسي والعسكري.

وخلا بذلك، الجو لأبي مسلم، وأضحى الحاكم الأوحد لبلاد المشرق، واتخذ لنفسه لقب «أمير آل محمد»[1] وهذا يعني أنه اعتبر نفسه أكثر من مجرد والٍ على مقاطعة.

تجلَّت خلال حرب خراسان قدرات أبي مسلم العسكرية والسياسية والإدارية، تلك القدرات الكبيرة التي تجمَّعت لهذا الوالي والتي جعلته من بين أعظم القادة العباسيين.

وأضحى هذا الرجل، بعد أن تقرَّب من سكان البلاد المحليين أمل الموالي الذين تطلعوا إليه، وتوسموا فيه القدرة لرد اعتبارهم، وإحياء الإرث الفارسي القديم ويمكن اعتباره مقدمة لظهور البرامكة والطاهريين والبويهيين، واضعاً بذلك أسس الدولة الخراسانية.

مرحلة قحطبة بن شبيب

ما كادت الثورة العباسية تستقر في خراسان، وتتهيأ القيادة فيها لتسديد الضربة الأخيرة لنصر بن سيار، المتقهقر إلى نيسابور، ومعه أنصاره من العرب من قبائل تميم وبكر وقيس، حتى نُقلت قيادة العمليات العسكرية من أبي مسلم إلى قحطبة بن شبيب الطائي بأمر من الإمام إبراهيم بن محمد[2].

ويبدو أن القيادة العليا في الحميمة تطلعت إلى ما وراء خراسان من أحداث، ورأت ألا يتجاوز أبو مسلم هذه المنطقة، وأن العمليات العسكرية في المناطق العربية لا بد أن تُسند إلى قيادة عربية.

سيطر قحطبة على طوس ونيسابور[3]، وأدرك نصر، من جانبه، استحالة المقاومة واستعادة السلطة، فهرب من نيسابور إلى الري[4].

= أبي جعفر الذي كان موجوداً آنذاك في خراسان. راجع: عمر: مرجع سابق ص ٨١.

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٣٨٦ ـ ٣٨٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٨٨.

(٣) الطبري: ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٩٠. ابن أعثم: جـ ٤ ص ٣٥٣.

ذعرت الحكومة المركزية في دمشق من هذه التطورات السريعة في خراسان، فأرسلت الجيش تلو الجيش للقضاء على قوة الثورة، إلا أنها فشلت في مهمتها. فاستسلمت المدن مثل أصفهان ونهاوند وغيرهما[١]، وأضحت الطريق، إلى العراق، مفتوحة أمام جيش الثورة. ومات نصر بالري في جو الهزيمة القاتم دون أن يكسب معركة[٢]. وفقد الأمويون بموته قائداً كبيراً يقودهم في هذا الصراع الدامي مما أثَّر على قضيتهم تأثيراً سلبياً.

واندفع قحطبة بجيشه نحو الكوفة في جو الانتصارات، في الوقت الذي كان فيه يزيد بن هبيرة، الوالي الأموي على العراق، يتحرك نحوه، فجرت بينهما معركة انتهت بانتصار قحطبة. وتقهقر ابن هبيرة إلى واسط وتحصَّن بها. لكن قحطبة لم يعش ليرى النتيجة النهائية، فقد غرق وهو يعبر النهر[٣] وخلفه ابنه الحسن في زحفه الظافر ودخل الكوفة في الرابع عشر من (شهر محرم عام ١٣٢ هـ/ ٧٤٩ م) واعترف بأبي سلمة الخلال رئيس دعاة العراق وزيراً لآل محمد، وقد أضحى صاحب السلطة الفعلية[٤].

وبهذا تقرر مصير العراق. وكان استقرار الثورة في هذا البلد، بعد المشرق، كسباً عظيماً بحيث أضحى من الممكن أن تظهر الدعوة، وأن يعرف الخراسانيون إمامهم من آل محمد[٥].

اعتلاء بني العباس السلطة

كان أبو مسلم على اطلاع دائم بما كان يجري في العراق، عن طريق مندوبه السياسي أبي الجهم بن عطية، الذي رافق جيش قحطبة، وكانت له هيمنة على القوى المسلحة. وقد اعترف به أبو سلمة الخلّال وأقرَّه في منصبه السياسي هذا.

أما أبو سلمة، فقد كان مسؤولاً عن الكوفة بوصفه «وزير آل محمد»[٦]، وهو

---

(١) المصدر السابق: ص ٤٠٥ ـ ٤٠٨. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٢٧٥.
(٢) ابن أعثم: جـ ٤ ص ٣٥٣.
(٣) المصدر نفسه: ص ٣٥٧. اليعقوبي: جـ ٢ ص ٢٧٧.
(٤) المصدران نفساهما.
(٥) محمود والشريف: مرجع سابق ص ٦٤.
(٦) الطبري: جـ ٧ ص ٤٥٠.

منصب ولقب استحدثا حديثاً[1]. ونستنتج من طبيعة المهام التي كان يمارسها، والمسؤوليات الملقاة على عاتقه، في هذه الفترة، أنه كان صاحب الأمر والنهي. وقد اعترف بسلطته هذه جميع أنصار الثورة، لكن سيطرته على الجيش لم تكن كاملة، وقد بقيت في يد أبي الجهم.

وبعد سيطرة أنصار الثورة على الوضع في العراق، حان الوقت لاختيار الشخص من آل محمد الذي أعلنت الثورة باسمه، وكان اسم إبراهيم الإمام هو الشائع. لكن هذا التداول كشف عنه الغطاء، وسهَّل لبني أمية اكتشاف الصلة بينه وبين الثورة. لذلك قبض عليه مروان الثاني، وسجنه في حرّان، ثم قتله في (شهر محرم عام ١٣٢ هـ/ شهر أيلول عام ٧٤٩ م)[2]، وتؤكد الروايات أن الإمام إبراهيم نعى نفسه إلى أهل بيته أثناء القبض عليه، وأوصى إلى أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد، وجعله الخليفة بعده، وأمرهم بالمسير معه إلى الكوفة، وأخبر أصحابه، قبل موته، بهذا الاختيار[3].

وعندما وصل آل العباس إلى الكوفة، بعد دخول جيش الثورة إليها، أنزلهم أبو سلمة في دار الوليد بن سعد، مولى بني هاشم، وأمرهم بالاختفاء. وكتم أمرهم عن جميع القادة والشيعة نحواً من أربعين ليلة، ورفض أن يدفع لهم نفقات الانتقال[4]، وكتب في الوقت نفسه، إلى زعماء آل البيت من بني علي بن أبي طالب يعرض عليهم إمارة المؤمنين بشروط محددة[5]. والراجح أنه عزم على تحويل الأمر إلى آل علي عندما بلغه خبر موت الإمام إبراهيم بن محمد، لكن هؤلاء اعتذروا عن قبول الدعوة[6].

ولنا أن نتساءل: ما هي مبررات أبي سلمة في تحويل الخلافة إلى بيت علي بن

---

(١) شعبان، محمد عبد الحيّ: الثورة العباسية ص ٢٥٧.

(٢) الدينوري: الأخبار الطوال ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣. اليعقوبي: جـ ٢ ص ٢٧٤. أخبار الدولة العباسية: لمؤلف مجهول ص ٣٩٣.

(٣) الطبري: جـ ٧ ص ٤٢٣.

(٤) المصدر نفسه: ص ٤٣٠.

(٥) لقد كتب أبو سلمة إلى جعفر الصادق وعبد الله المحض وعمر الأشرف وكانوا جميعاً في الحجاز.

(٦) راجع فيما يتعلق بإرسال الكتب إلى هؤلاء الزعماء وردود الفعل عليها عند اليعقوبي: جـ ٢ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣. ابن الطقطقا: ص ١٣٧ ـ ١٣٩.

أبي طالب؟ وما هي الشروط التي وضعها لتسلم هذا المنصب؟

يبدو أن وزير آل محمد لم يأخذ وصية الإمام إبراهيم لأخيه أبي العباس مأخذ الجد، أو على الأقل، فإنه لم ير أن أبا العباس هو أصلح الهاشميين لتولي إمارة المؤمنين.

لكن مما لا شك فيه، أن هذا الرجل كان واقعاً تحت ضغط الأحداث السياسية المتعددة الاتجاهات، كان أشهرها الاتجاه العلوي، والاتجاه الخراساني، والاتجاه القومي الفارسي المقنع، فكان عليه أن يختار شخصاً مقبولاً من كافة الأطراف، خاصة وقد بدا الفرق واضحاً في وجهات النظر بين الاتجاهين الأولين بشأن صلاحياته[1].

ويُفهم من تحوله إلى آل علي، أنه استنتج من خلال الظروف السياسية المحيطة به، ومن توقعاته للمستقبل، أنه قد لا يحقق تطلعاته السياسية في ظل الحكم العباسي. ويبدو أنه كان يمثل بعض الزعماء الخراسانيين الفرس، ذات الاتجاه القومي المقنع، فأراد أن يحوِّل الأمر إلى الطالبيين بحيث يكون له الفضل في نقل السلطة إليهم طمعاً في تحقيق أهدافه المتمثلة في إحياء الأماني القومية للفرس[2].

ونتيجة لهذا الاختلاف في النظرة السياسية والعقدية، ظل أبو سلمة زهاء شهرين منهمكاً في البحث عن الرضا من آل محمد يكون مقبولاً من الجميع من جهة، ويرضى بهذا المنصب على شروط الخراسانية التي جعلت من الصعب، وربما من المستحيل، وجود الشخص الذي يقبل بهذا العرض، من جهة أخرى، لذلك كان رفض زعماء آل البيت يصب في هذا الاتجاه[3].

وأخيراً فرضت الخراسانية مرشحها العباسي، أبا العباس عبد الله بن محمد أميراً للمؤمنين، فبويع له بالخلافة يوم الجمعة (الثاني عشر من شهر ربيع الآخر عام ١٣٢ هـ/ شهر تشرين الأول عام ٧٤٩ م)[4] والجدير بالذكر، في هذا المقام، أن

---

(١) طلب الطالبيون أن يكون الإمام نفسه هو أمير المؤمنين، وهذا يعني أن يكون الحاكم ذا سلطات دينية وسياسية في وقت واحد. أما وجهة النظر الخراسانية فتتضمن وجوب التغيير الجذري في هيكلية النظام السياسي السابق بحيث يتمتع أمير المؤمنين بسلطات دينية محدودة فقط دونما سلطات سياسية زمنية.
راجع فيما يتعلق بهذا الموضوع: شعبان، مرجع سابق ص ٢٥٨.

(٢) العمرو: مرجع سابق، ص ١٤١.

(٣) شعبان: ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

(٤) ابن كثير: جـ ١٠ ص ٥٢.

تاريخ خلافته يبدأ بعد مقتل مروان الثاني، آخر الخلفاء الأمويين، لثلاث بقين من شهر ذي الحجة من العام الهجري المذكور، الموافق لشهر تموز عام ٧٥٠ م، وهو تاريخ قيام دولة الخلافة العباسية.

ولم يكن أمام أبي سلمة، الذي تمَّ الأمر دون علمه، إلا أن يقبل بالأمر الواقع مبرراً موقفه أمامهم: «إني إنما كنت أدبر استقامة الأمر وإلا فلا أعمل فيه شيئاً»[١].

ويبدو أن أبا مسلم قد استُشير في الأمر قبل حدوثه ووافق عليه، بدليل أن مندوبه السياسي أبا الجهم قام بنشاط ملحوظ في اختيار أبي العباس[٢].

الاتجاهات العامة لدولة الخلافة العباسية

انتهجت دولة الخلافة العباسية، منذ قيامها، سياسة مشرقية واضحة، وتطلعت بوجهها إلى خراسان مهد نشأتها. وجاء هذا التحول نتيجة عدة عوامل لعل أهمها:

- مناوأة أهل الشام للعباسيين، لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم للأمويين.
- انتقال العاصمة من دمشق إلى بغداد.
- التأثير الفارسي على النظم والحياة االعباسية.
- انتعاش التجارة المشرقية.
- ابتعاد الدولة العباسية عن عالم البحر الأبيض المتوسط.
- عدم اهتمام العباسيين بإنشاء أسطول بحري في المتوسط يضارع الأسطول الأموي.

مما لا شك فيه أن انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين قد صحبه تغيير جذري، وتطور واسع وعميق في مجمل الحياة الإسلامية، وقد تجلَّى ذلك في الاتجاه العام للخلافة العباسية، وتمثَّل في بادىء الأمر، بنقل العاصمة من دمشق إلى بغداد، مشكِّلاً بذلك خطوة نوعية في الانتقال من العالم البيزنطي إلى العالم الفارسي.

هذا وقد تراجع النشاط الحربي الكبير الذي شهده العصر الأموي على الجبهة الغربية في عالم البحر المتوسط، ونظر العباسيون إلى شواطئه على أنها حدود، ونهايات

---

(١) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٢٨٣. الطبري: جـ ٧ ص ٤٢٠.

(٢) الطبري المصدر نفسه: ص ٤٢٩ ـ ٤٣١.